الجريمة والعبقرية

اذا درسنا المجرمين والعبقريين والنابغين من رجال العلم والتأليف والفن ، الذي تمتلىء باسمائهم سجلات الخلود العالمية ، من الناحيتين العقلية والجسمانية ، وجدنا ان العبقري لا يختلف كثيراً عن المجرم الذي يلقى في غياهب السجن ويحبس عن المجتمع درءاً لشروره وآثامه . فهل هناك علاقة بين الجريمة والعبقرية ؟ وهل العبقري يميل لاقتراف الجرائم واجتراح المساوي اكثر من غيره ؟

لنأت اولاً على تعريف الجريمة ، وماذا نريد بها

اختلف علماء الاجرام (Criminologist) في تعريف الجريمة ، فقال بعضهم : « انها عمل مخالف لانظمة المجتمع » وعرفها آخرون بقولهم : « ان يعيش الانسان حياة مخالفاً نظام السلوك والآداب المعترف به من بقية افراد المجتمع » وقال غيرهم : « ان الجريمة اي عمل سواء أكان اهمالاً او ارتكاباً يجازي به القانون لمخالفته المجتمع » او قول بعضهم : « شذوذ عن احكام الشريعة والآداب » . نرى ان ثمة اختلاف ظاهر في التعاريف المذكورة ، وليس بالامر اليسير تعريف الجريمة تعريفاً دقيقاً . واذا كان يعتبر جريمة في السابق لا يعتبر كذلك الآن ، وعلى الضد من ذلك فقد نحسب عملاً ما جريمة الآن ولكنه لم يكن في نظر الاقدمين كذلك . فان الشعوذة كان يعتبر محترفها مجرماً ولكنها الآن ليست كذلك . والرقيق الذي كان في الماضي عملاً يرزق منه الناس كثيرون اصبح الآن يعد جريمة اجتماعية لا تغتفر ويطارد صاحبها . وقد يُعَدُّ نوع من الاعمال جرماً عند امة ولكن عند غيرها قد يحسب عملاً شريفاً

يقول لومبروزو (Lombroso) : « ان المجرم نوع خاص ، يقف وسطاً بين العته والوحشية » . اما « وزلاف » العالم النفسي فيقول في كتابه « الانسان العقلي »[1] ما يلي : « ان المجرم يمثل نوعاً آخر من الفرد المتوقف (اي العاطل) . وليس المجرم شخصاً بسيطاً ، وعجرماً عرضياً ، وانما هو انسان لا يفرق بين واجباته وحقوق الآخرين . وتنقصه حاسة الاخلاق واما قوة ادراكه فضعيفة بوجه عام ، وهو قليل الشعور بحاسة الالم بوجه خاص ، ولذا كان قاسياً عديم الشفقة . ومن صفات المجرم ايضاً الكسل ، وهو معجب بنفسه ، لا يندم على ما يقترف من آثام واجرام ، شديد الولع بالشهوات ، والقمار ، والفسق ، والدعارة ، مهمل للديانة ،

(١) ص ٢٦٠ "The Mental Man" by G. G. Wenzinff

كره للانسانية . وعلاوة على ذلك فهو خبيث ، قليل الذكاء ، وميزاته الفراسية (physiognomie) واضحة ظاهرة كميزاته العقلية »

هذا ما يقوله ونزلاف عن تعريفه للمجرم . فهو يصفه باوصاف نراها منتشية بصورة عامة بين مختلف طبقات الناس . وقد خالفه لومبروزو العالم الايطالي المشهور ، الذي عد علماء الاجرام مدى جيل يعتبرون كتبه من اهم ما الف من نوعها في العلوم النفسية ، ومن جملتها كتاباه «الرجل العبقري» و «الرجل المجرم» . فان لومبروزو يغرق اغراقاً في بحثه واستدلاله على تبيُّن الاجرام من القسمات والجوارح ، وما يميز ذلك من خواص وحقائق . ويعتقد لومبروزو: «ان المجرمين شذوذاً في القوى الجسمانية والعصبية والعقلية اكثر من شذوذ غير المجرمين وان هذا الشذوذ سببهُ اما انحطاط وتقهقر (في القوى العقلية) ، واما رجوع او ردّة لمرض وراثي في العائلة »[1] . وقد اشتهر قبل لومبروزو بمدة طويلة في البحث في الاجرام العالم الطبيعي النمساوي (فرنز جوزيف غال) Franz Joseph Gall وقد كان بحاثة مشهوراً في العلوم المتعلقة بدراسة الجمجمة والدماغ وتلافيفه ، فأخذ بالنظرية الآتية وهي : « ان الميول الاجرامية غريزية في الغالب ، ويمكن ان تُكتشف وتظهر بدراسة تركيب الجمجمة »[2]

ثم ان الدكتور غورنغ Dr. Goring يذكر في كتابه « المجرم الانكليزي » ١٩١٣ ، بعد بحث واستقصاء عظيمين ان من النتائج التي توصل اليها النتيجة الآتية : — « لا يوجد هناك ما يصح ان يطلق عليه نوع المجرم الطبيعي » . ان هذه النتيجة التي توصل اليها العالم المذكور قد وافقه عليها جميع علماء الاجرام ، وقد زاد على ذلك فقال انه لا يوجد نوع يطلق عليه «المجرم العقلي» . وقد ظهر الآن ان الجريمة مظهر منشعب من مظاهر الحياة الاجتماعية للطباع والعادات الخطرة الموبوءة ، كالفقر المدقع ، وانتشار الاوبئة والامراض ، واختلال القوى العقلية »[3]

لقد عرفنا الجريمة والمجرم ، فلنأت الآن على تعريف العبقرية ، فما هي ، وما علاقتها بالجريمة؟

العبقرية موهبة ، وشذوذ في النمو العقلي ، تنحو بصاحبها للتفوق على اقرانهِ في عمل مشترك ، واظهار مقدرة فائقة في ناحية من نواحي الحياة ، يقصر بقية الناس عن اللحاق بهِ ومجاراته فيها ، فاذا قلنا ان فلاناً شاعر عبقري مثلاً فاننا نقصد بذلك أنهُ نابغ في فنهِ (الشعر) متفوق بهِ على زملائهِ في هذا الفن ، من ذلك شكسبير ودانتي وغيرهما ، وانهُ (اتى بما لم تستطعهُ الاوائل) على حد قول المعري . . .

والعبقرية تنشأ على الغالب ، من خلل في خلايا الدماغ وتوتر في الاعصاب ، وقد تحدث

(١) دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة . مجلد ١٤ . ص ٣٤٥

(٢) » » » » » » ٦ » » ص ٧٢٠

(٣) George. W. Kirchwey in the Encyclopaedia Britannica vol 6 p. 720-21

بسبب البيئة والوراثة ، وأعراض كثيرة تنم على الانسان في مختلف ادوار حياته . والامراض ايضاً أو قوى في العبقرية ، وخصوصاً ما كان منها مزمناً كالسل وغيره . وكثيراً ما قيل ان العبقرية تنشأ من الامراض . ولقد قضى كثير من العبقريين ، كالشاعر الانكليزي كيتس والروائي الروسي تشيخوف والكاتب الانكليزي ستفنسون ضحية هذا الداء الوبيل (السل)

وقد جاء في محاضرة للدكتور بيرسون (١) Dr. A. Tare Pearson الطبيب في مستشفى مندسلي ما يلي : —

« كثيراً ما نسب العلماء البواعث الشيرة للعبقرية الى مرض السل . ولكني احسب ان هؤلاء قد افرطوا جداً فيما نسبوه اليه . ومما لا ريب فيه انهُ يحدث هيجان واضطراب في بعض اعراض مرض السل الرئوي ، وثمة شعور بقصر الحياة ؛ ولكن هذا الشعور لا يسلم به العقل الواعي . ان الشعور بقصر الحياة والهيجان المضطرب الناشئين عن هذا المرض المزمن ، وخصوصاً في ادواره الشديدة ، قد يكونان كباعث قوي وسنبه للانتاج والابتكار ، ولا سيما عند المؤلفين ، الذين يتمكنون من دون كبير عناء جسماني ، من اظهار آثارهم ونبوغهم »

يتلخص معنا من هذا ان المرض ليس شرطاً من شروط العبقرية ، وانما هو عارض طارىء لا يلبث ان يزول ، اما العبقرية فانها وُجدت ، فهي موجودة اصلاً ، ولكن المرض قد يزيدها تأججاً وانفجاراً

هذا وبعد ان اتينا على تعريف الجريمة والعبقرية فنبحث الآن في العلاقة بينهما ، وهل يكون المجرم عبقريًا ، والعبقري مجرماً ؟ انا نرى العبقري غريباً في افكاره وأطوار حياته ، متصفاً بصفات شاذة ، اكثر ما يتصف بها المجانين والمجرمون . وثمة تقارب ظاهر بين المجرم والمجنون والعبقري ، والصفات والعادات التي يتصف بها هؤلاء الثلاثة لا تقول انها واحدة ، ولكنها قريبة مشتركة ، ويمكننا ان نعد هؤلاء ثواراً على الهيئة الاجتماعية وهم ابعد ما يكونون عنها وعن الانسان العادي . فالعبقري تتمثل فيه الروح الاجرامية الثائرة بمظاهرها المختلفة ، ويتأجج في نفسه البغض نحو المجتمع الذي لا ينفك يثيره ويهيجهُ وهو في خصام دائم معهُ ، تتنازع صدره الاطماع والمنافع ، وتثيره الانظمة والقوانين فيكاد يحطمها ، ويسعى جهده لتبديلها وتغيير معالمها . فأوجه الشبه بين العبقري والمجرم انهما مشتركان في صفات عدة ، كالانفعال الشديد الهدام ، والثورة المضطرمة والبغض المتأجج ، والحقد الدائم ، والخيال الوثاب ، وغير ذلك . اما الشواهد الدالة على تقارب ذهني المجرم والعبقري فكثيرة في التاريخ

(١) راجع عدد آب (اغسطس) سنة ١٩٢٢ من مجلة "Journal of State Magazine"

يقول هنري رودس في كتابه « المجرم والعبقري »(١) ما يأتي : —

« إنَّ العبقرية اكبر اعداء المجتمع . والمجتمع يعمل لهدم العبقري وهلاكه اولاً لانه يعتنق آراءه الاجرامية ويتبعها . فالعبقري يضر المجتمع ويهدمه احياناً كثيرة . وقد عمل نابوليون من اوربا مذبحاً ومجزرة . اما لنين فقد ترك روسيا جائعة دامية . وقد قيل ان فولتير يحمل تبعة الثورة الفرنسية وهو مسببها ، فقد قوَّض بقلمه الحاد ، دعائم النظام في فرنسا ، ومهَّد بذلك السبيل للثورة . ولكن من الخطأ ان نعتبر العبقرية مضرة ، او نافعة ، فقد تكون هذه او تلك . . . »

فالعبقرية نتيجة حالة غير طبيعية في العقل البشري : وهي بثورانها ضد المجتمع تدور في دائرة ، وكثيراً ما نرى لها مخرجاً في الرجل المجرم . ومن امثلة الطبيعة الثائرة « اوغست ستريندبرغ » الكاتب القصصي المعروف . فقد تجمعت فيه صفات كثيرة ومواهب عديدة ، فكان مؤلفاً مسرحيًّا وكاتباً روائيًّا ، وطالباً نباتيًّا ، وكيمائيًّا ، ومن العجيب انهُ تعلم اللغة الصينية وهو لم يزر قط بلاد الصين ! وقد كان يحتقر ما تواضع عليهِ المجتمع من مقاييس السلوك والآداب ، ويكره ما ائتلف عليهِ الناس من قواعد الاخلاق وأنظمتها . وقد أتهم بالتجديف ، وكتبه مشحونة بالآراء الثورية ضد المجتمع ، حتى انهُ في بعض حياته ظهرت فيهِ بوادر عديدة للأجرام . وكان ريشيليو غير شريف في الاساليب والطرق التي سلكها لجمع المال . وبدأت حياته بالتزوير ولما اعطيت له ورقة عماده الكهنائية بواسطة وثائق مزورة ، وضع فيها اسمهُ في سجل العماد بدلاً من اسم اخيه . ويقول رودس المذكور آنفاً : « ان جرائم ريشيليو سبب قوي في ظهور عبقريته ، وان ريشيليو المجرم هو الذي كان عظيماً . واما بقية مواهبه فكانت عادية ، بل حقيرة »

اما (ادجر ألن پو) الشاعر الاميركي فكان (عبقريًّا — مجرماً) بمعنى الكلمة ، فكان دائم النزاع والثورة بين المجتمع ، وقصته اجرامية حافلة بحوادث المجرمين ووقائعهم . ويصف (پو) المجرم وصفاً لا يصفه به غير المجرم . واما اسكار وايلد فحاكمته وسجنه تظهره للملأ مجرماً كبقية المجرمين ، لا يختلف عنهم في شيء . ولعلَّ من قرأ كتابه « من الاعماق De Profundis » الذي ترجم للغة العربية ، يعرف ماذا قاسى وكيف عاش وايلد في السجن مع زملائه المذنبين !

فبين العبقرية والجريمة اذاً ، اتصال وثيق ، ولكن ليس شرطاً ان يكون العبقري مجرماً او ان يكون المجرم عبقريًّا .. وانما هي فلتات الطبيعة وشذوذها ، تجعل من الانسان تارة عبقريًّا يحلق في سماء الخلود ، واخرى مجرماً يعيش وراء القضبان في ظلام السجون ! ...

حلب : سورية

فؤاد عيتاني

(١) "Genius & Criminal : a Study in Rebellion" by Henry T. F. Rhodes